رسالة سجين جزائري

بقلم الجنيدي خليفة

اخي العزيز « منصور »

اظن انك كنت فكرت في موتي قبل الآن ، بل لعلك ان تكون قد اقتنعت منه تماما ، فانا لم ابلغك ردي على رسالتك التي وجهتها الي منذ اكثر من ثلاثة اشهر ، والتي عبرت فيها عن قلق خفي على حياتي ..

والواقع ـ ايها العزيز ـ انك تستطيع ان ترتاح بالا ، فنحن في الجزائر لا يمكن لنا ان نموت ، اجل لقد التزم كل جزائري بذلك ،أوه ! « مائة وخمسون ... غارات جوية .. حملات اكتساح .. تنفيذ الاعدام على خمسة في ساحة سجن بربروس ... الخ ... » بل ان الواقع اكثر جدا مما ترويه لكم الصحافة الفرنسية عندما يكون الامر متعلقا بالنساء والشيوخ وكل اعزل وقاصر ، غير أن كل ذلك قتل ، انه هجر وقتل ، انه ليس بالموت ، بل اكاد اصفه بالحياة ، لان القتل ها هنا في ارض الجزائر يتحول تلقائيا الى طاقة مساهمة في مجاوزة واقعنا الى امكانياتنا وحقنا الطبيعي .

وسواء أكان اياي من راسلته منذ ثلاثة اشهر ام كنت احد الذين يعيشون قتله فاني ابعث اليك بهذا الرد عليها معتذرا من تأخر طويل لعدم سنح فرصة التهريب على الرقابة والحراس ..

تقول ان فكرتك عن (بلاد النور) ـ كما اكره ان ألقبها ـ تتناقض تماما مع ما يرتكبه ابناؤها من جرائم شتى ، ومن ثمة فانت عاجز عن ادراك « التناقض » والحق اني لا أرى تناقضا أصلا ، فانت تقارن فرنسا ـ الثورة ، فرنسا ديكارت وروسو ، وبعبارة مختصرة أنتتقارن فرنسا ـ الكتب بفرنسا ـ الوحشية ، بفرنسا ـالاستعمار ، بفرنسا ـ النار والعدوان ، في حين كان عليك أن تقارن هذهالاخيرةبفرنسا ـالجند، بفرنسا المعمرين ، بفرنسا الحكومة .. وستجد عندئذ ان المنطق الذي تحرص عليه مستقيم ان لم نقر بسهولة ...

يأتي بعد هذا ثوريتك وسخطك على سلوك العالم وانظمته المصونة بمسرحيات القانون والكلمات الانسانية ، ثم ايمان بمصير موفق ينتهي اليه الكفاح الجزائري .

واني لاشاركك في هذا الايمان بامتلاء الرأي والاعتقاد معا ظانا انك لا تقصد منه مجرد (تشجيعي) على تحمل السجن وفتح الامل في الافراج عني ... ، فان يثور شعب ما ثورة مصممة محكمة وداخل مجال يشيع فيه التحرر ، ليساوي مجرد ذلك من وجهة باطنية نفس الغاية التي تهدف اليها الثورة ، ومن وجهة خارجية فان « الغاية » بالنسبة الى مجموع الدفعات والاعمال المتساهمة فيها لاشبه بنقطة تصورية ، فكون هدف ما مساحة الوصول اليه عشر خطوات ليعنى التعادل بين الخطوات والهدف ، وبتعبير رياضي فان عشر الخطوات يساوي عشر الغاية ،لو كانت الاعمال التكاملية تخضع لمثل هذا التشبيه ، فكل دفعة من الاعمال المصممة هي غاية بقدرها ، وهكذا فان الثورة قد نجحت في الحصول على هدفها بقدر ما هي ثائرة ، كل قطرة دم ، وكل استشهادة ، وكل أنة ثكلى وارملة ، وكل طلقة نارية ، وكل نشاط ثوري كائنا ما كان ، الا وله نصيبه الضئيل او العظيم في المصير الكريم . ذلك فيما ارى هو تحليل الايمان بالنصر ومعطياته هي التي تغرس فينا الثقة والاقدام رغم عدم تكافؤ الوسائل المادية مع العدو .

وكأني بعقلك« المنطقي » يقول انك لم تعتبر نفس الاعتبار بالنسبة الى العدو ! أجل اني لا اعتبر ذلك بل ليس من المنطق نفسه ان اعتبره ،ذلك أن ما دفعنا الى الثورة انما هو رغبتنا الطبيعية في امر طبيعي ، انهشيء في التربة ، شيء في العروق ، امل في كرامتنا الانسانية ، في اصالتنا ، ومن ذا يستطيع ان ينتزع من نفوسنا نفوسنا !؟

بقي ان اوضح ما قد يخطر ببالك حول تشبيهي « لبعض الغايةالمعادل لبعض العمل » فلعلك تقول ان ذلك يساعد على ايجاد تبرير لموقف اكتفائي ناقص : لتقف الثورة او لا تقف فقد حققت على أية حال نسبة من النجاح !؟

وها هنا أؤكد لك أن ذلك مجرد تبسيط وتشبيه ، وأنه يستحيل اخضاع الكيف الى الكل وان الحركة الحيوية الجوائية (1) Immanent لتتمرد على كل تقسيم طالما كانت نشاطا موحدا ومتواصلا ، ومن ثمة فان حركة الشعوب بتكاملها وعضويتها لا يمكن لها ان تقاس بما حققتهمن الاستقلال السياسي فحسب ، ولا بغيره فحسب ، فما كل ذلك سوى خطوط اعتبارية مثل الاصطلاحات المشيرة الى الوقت في الساعات ، هناك حركة دائمة، صاعدة ، متفتحة ، ذات طموح ابدي وان لم تشعر بالطموح ، لا تنتهي الا بانتهاء دورتها في الحياة .

علينا نحن العرب لا العمل على نيل استقلالنا فحسب ، ولكن علينا بعده ان نواكب العصر ملتحقين بارقى امم ، وذلك ايضا لمرحلة انتقالية الى الطور الاعظم : الا وهو تقدم الركب الحضاري وتوجيه مقود الانسانية في جميع النواحي العلمية والروحية .

وقد تقول ـ ايها الاخ العزيز ـ ان كلامي اقرب الى الاحلام منه الى الامكانيات ، وأنا بدوري لا أدعي انه قوي الاحتمال ، غير أن ما هو محقق سواء عندنا العرب بالنسبة الى القرن الماضي بل أقل او عند بعض الشعوب الاخرى ـ لم يكن في عهد ما الا من قبيل الاحلام ، فما جنس العرب بالقاصر جيليا عن الابداع اذا اقتلعنا من نفوسنا جذور النقص يغرسها بيننا الاعداء ليدعوا انهم المحتكرون الاوحدون للخلق والنبوغ ، وذلك طبعا لغايات استعمارية تحدثهم بها نفوسهم ، لقد اثبت تاريخنا اهليتنا لكل فضل عقلي وحضاري.

(1) ترجم الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا هذه الكلمة الفرنسية بالجوانية بالنون (العلية تنبثق من باطن) ـ العلوم ـ ص ٢٦ عدد تموز ١٩٥٦) وفي المجمع ان جوى الشيء باطنه ، وقد ارتأيت من النسبة جوائية ، بدل جوانية كما فعل الدكتور المحترم

والحق ان المعركة التاريخية التي تقوم بها الجزائر الان والصمود الجبار الذي قامت به مصر في وجه العدوان الثلاثي لجدير بأن يحطم قشرة النقص تلك التي كانوا يغلفون بها شعور العرب ، فها نحن قد تجاوزنا المرحلة الاولى ، لقد انتصب العملاق العربي الان مستقيما اروع، وما بقي عليه ـ وليس بالقليل ـ الا ان يتحرك ويناضل ويصارع ،ويبني للمستقبل بناء شامخا خالدا ، وعندئذ يصدق علينا قول الشاعر : «العظيم من بنى صومعة جديدة لا من يقول كانت لي صومعة اطاحت بها العواصف ... »

وبعد فهل لك ـ ايها العزيز ـ ان تحدثني في رسالة اخرى ـ اذا سنحت فرصة التهريب ـ وانت المتصل بأوساط الشباب المثقف عما اعد هذا الشباب الشمفريقي بخاصة والعربي بعامة ، وهل اتضحت له الخطوط والمنطلقات المثلى القويمة للمسير الكبير ؟

ان الثورة الجزائرية والصمود المصري لمجهودات شعبيه بأتم معنى الكلمة ، اي ان جميع طبقات الشعب قد ساهمت فيها ، غير اننا لا نزال ننتظر بعد كل ذلك ثورة فكرية عربية تقودنا الى الطور الاعظم او الى الحلم الاعظم كما حدثتك آنفا .

انه لا مناص من تعبئة ، وهذه التعبئة بسيكولوجية اولا وبالذات ، اعني تعبئة عقائدية قاعدية يعتنقها الفكر ويعتمل بها الوجدان ، يملي علينا نوعيتها اولا وقبل كل شيء وعينا الناضج لوضعنا الراهن ،ويسعر ايماننا بها ثانيا طبيعتها بالنسبة الى امكانياتنا وعدم اجنبيتها عن مزاجنا العربي القوي الارادة ، الكاد في طلب العرفان ، المقدس للفضيلة ...

انا شخصيا أؤمن بعقيدة تبلغ درجة يقيني منها درجة يقيني من وجودي في زنزانة (بربروس) اؤمن بـ « التحمل » كاطار لكل عمل ، الجهد شرط طبيعي للنيل ، فلنبذله بكل طبيعية وطواعية ، معتبرين انه جدير باضفاء قيمة حقيقية على كل مفهوم ، أدرك ان الكلمة في حاجة الى عناء اضافي للتفسير والتحديد ، فلنفرض اننا اكتشفنا احدى الخيبات الميتافيزيكية ، ـ كمنطق الغاب مثلا ، وفقدان سند يريح البشرية ويفتح لها الامل ـ فان اكتشافنا هذا ليملي علينا سلوك احدى طريقي المفترق ، فاما طريق الهزيمة واعتبار الوجود عبثا لا طائل تحته ، واما طريق التحدي المستمد له قوة من الخيبة الميتافيزيكية نفسها ، مبدلا بالتواكل على السند اعتماده على وعيه لموقفه الذي لا يفيد فيه البكاء ، ومواجهته له كما هو ، ان ما جعل الآخرين يتراجعون هو بالذات ما يجعل الاقوياء ايمانا بأنفسهم ينطلقون الى الامام ، فطالما كنا موجودين فلا بد ان نعطي لوجودنا كل خصوبة وامكانية ، فأما التراجع فمعناه مناقضة الوجود ، وان مما يشجعنا على السير كوننا نحن الذين اخترناه ، فهو نابع من اصالتنا وليس اعتبارا فوقانيا اجنبيا عن انسانيتنا .

على ان التعبئة الشعبية تظل طاقة كامنة بدون رسم مجال لها ، فما عسى ان تكون خطوط المجال ؟ هنا ايضا يقدم لنا الشعور بالخيبة الميتافيزيكية الرسم المكمل لـ « التحمل » . فكونك وحيدا بعد اعتقادك بالسند في عالم شاسع صحراوي المصير ، وكونك ترى غيرك يوافق فكرتك او ينبغي ان يوافقها ، ان كل ذلك يؤدي بك الى الايمان بضرورة التعاضد كعوض عن الخيبة والى استعمال « اجود النتاج العقلي » للسعي في ذلك العالم الصحراوي سعيا انشائيا اصيلا ..

« التحمل » ـ« العلم » ـ « التعاضد » ثالوث اساسي فيما أرى للنشاط الذي ينتظر شباب العرب ، سواء أكان النشاط متعلقا بمرحلة التكوين او المواكبة، او القيادة الانسانية. ولست في حاجة ان الفت نظرك ـ ايها الاخ العزيز ـ الى ان زرع امثال هذه المباديء في نفوس الشباب يحتاج اولا الى اكتساح شامل للافكار العفنة كالأنانية والشهوانية واللامبالاة و«الاقتناع بما تيسر » وكل سقام ..

اننا على الخط الحاسم من مصيرنا العربي كله ـ ولن نمل تكرار هذه العبارة حتى نرانا جاوزنا خطرها ـ فعلى كل جندي اي اعربي ان يتطوع في المعركة الكبرى ، معركة مجاوزة واقعنا الى امكانياتنا الضخمة ، وانه ليساعدنا على النجاح ـ الروحي على الاقل ـ وضعية الغرب نفسه وتعرض حضارته الاخلاقية لتهديد خطير ، وثق اني أؤمن كذلك بأن انهيار « التعبئة » الروحية أهم بكثير من انهيار التعبئة التكنيلوجية والمادية ، فهذه قيمتها في مدى ما تعطيه اياها تلك .

هنالك قيم عربية لا نفتقر في بعثها على المجال الشعبي الا الى تقويمها وتعديلها من الانحراف الذي اعتراها في عصور انحلال شخصيتنا القومية وستكون هذه القيم فعالة اذا نحن عرفنا كيف نصوغها متماشية مع عصر اخضاع الطبيعة ..

وفي الختام ـ أعبر لك ـ ايها الاخ العزيز ـ عن امنيتي في ان تكون حركات الشباب المثقف نافعة حقا للعروبة في جميع بلادها ، ولعل فرحة الشعور بالاتجاه الى هذه الامنية تتاح لي عندما ترد الي حريتي النسبية بخروجي من عالم القضبان ، او انها ستتاح الى أخ آخر ان كانت الاخرى ...

ومهما يكن من شيء فاكتب دائما الى نفس العنوان وبنفس الطريقة وستجد دائما كل قتيل يعيش عند كل حي منا ، وستجده دائما عند ربه يرزق .

وسلامي الى الجزائري منك والعربي فيك

ط . م بربروس (الجزائر) في ٧ ـ ٣ ـ ١٩٥٧

الجنيدي خليفه

صدر اليوم

اللامنتمي

تأليف

كولن ولسون

نقله الى العربية

انيس زكي حسن

● كتاب خطير يدرس نفسية الانسان القلق الذي لا ينتمي الى جماعة او عقيدة ، والذي يجرر ظله العملاق في طريقه المظلمة الضيقة ، متمردا حينا مستسلما حينا ...

● وهو يدرس هذه النفسية المريضة كما تتجلى عند ابطال اعاظم الكتاب والفنانين ، فيحلل آثار سارتر ، وكامو ، وهمنغواي وكافكا ، ولورنس ، وويلز ، وفان كوخ ، ودوستويفسكي وغيرهم تحليلا يأخذ بمجامع القلوب ...

● صدر في انكلترا ، حديثا ، واعيد طبعه عشر مرات في اربعة اشهر . وقال عنه احد النقاد انه اخطر كتاب ظهر في التحليل منذ « تدهور الغرب » لشبنجلر ، وقال آخر : اننا لا نكاد نصدق ان مؤلفه فتى في الرابعة والعشرين !

احجز نسختك من هذا الكتاب

فهو أثر لن يستغني عنه مفكر او اديب

دار العلم للملايين